المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد:

فبشهادة العلماء، فإن الشيخ أيوب الخطيب يعد من كبار علماء العالم الإسلامي، وكان مدرساً شاملاً للعلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية، وخطيباً مفوهاً، وواعظاً متمكناً، وفقيهاً واعياً لجميع المذاهب الإسلامية، مفتياً لا ترد فتواه، وكان متواضعاً، ورعاً حسن المعشر، ذا خلق عظيم، وذا مهابة بين الناس، ووفاءاً لهذا العالم الجليل رأيت أن أكتب سيرة حياته بإيجاز، معتمداً على معاشرتي له، ومستشهداً بأقوال بعض العلماء، وبعض طلابه، لكل ما تقدم وقع اختياري على هذه الشخصية العملاقة لكتابة بحث عنه، لذا اقتضت خطة بحثي أن تأخذ الطابع الآتي:

مقدمة وذكرت فيها سبب اختياري للموضوع، والخطة التي اعتمدتها لدراسة هذه الشخصية في بحثي الموسوم (العلّامة أيوب الخطيب ـ رحمه الله ـ) والذي جاء موزعاً على تسعة مباحث، المبحث الأول: جاء بعنوان حياة الشيخ أيوب الخطيب، وقد قسمته على خمسة مطالب، المطلب الأول: اسمه وكنيته وولادته ولقبه، المطلب الثاني: نسبته، المطلب الثالث: نسبه، المطلب الرابع: دراسته، المطلب الخامس: شيوخه، أما المبحث الثاني: فاندرج تحت عنوان أقوال العلماء فيه وتلاميذه وعلاقته بهم وشعره، وجاء موزعاً على ثلاثة مطالب، المطلب الأول: أقوال العلماء فيه، المطلب الثاني: تلاميذه وعلاقته بهم، المطلب الثالث: شعره، أما المبحث الثالث: فقد أسميته عبادته وزهده وتواضعه، وقد قسمته على ثلاثة مطالب، المطلب الأول: عبادته، المطلب الثاني: زهده، المطلب الثالث: تواضعه، أما المبحث الرابع: فقد كان عنوانه صفاته وأخلاقه، وجاء على مطلبين، المطلب الأول: صفاته، المطلب الثاني: أخلاقه، أما المبحث الخامس: فقد أسميته تصوفه وورعه، وجعلته في مطلبين، أما

المطلب الأول: تصوفه،والمطلب الثاني: ورعه، وأما المبحث السادس: فكان بعنوان مجلسه العلمي ومطالعته، وجاء على مطلبين، المطلب الأول: مجلسه العلمي،والمطلب الثاني: مطالعته، أما المبحث السابع: فأسميته جهوده ومواقفه، أما المبحث الثامن: فقد وقع تحت عنوان مكانته العلمية وأهم العلوم التي برز فيها، والمبحث التاسع: أسميته: وفاته ونماذج مما قيل فيه من قصائد، وقسم على مطلبين، المطلب الأول: وفاته، المطلب الثاني: نماذج مما قيل فيه من قصائد، وأخيراً خاتمة ختمتها بأهم النتائج التي توصلت إليها خلال بحثي، وقائمة بأسماء المصادر والمراجع التي استخدمتها في كتابة بحثي هذا، وأسأل الله تعالى أن يوفق الدارسين في حقل العلوم الشرعية في إحياء ذكرى أولئك العلماء الأفذاذ، وعلمهم، وتعريف الناس بمكانتهم العظيمة، وعلمهم الوافر والذي تركوه ورائهم لإفادة أهل التقوى والصلاح، وعامة الناس، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

حياة الشيخ أيوب الخطيب

المطلب الأول: اسمه وكنيته وولادته ولقبه:

إسمه: أيوب.

كنيته: أبو عبد الحليم.

ولادته: ولد في سامراء سنة ١٣٣٥هـ = ١٩١٧م من عائلة امتازت بالزهد والورع والتقوى، من السادة الحسينية.

لقبه: الخطيب.

وللقب الخطيب قصة، فمع أنه الثامن ضمن سلسلة العائلة في تولي الإمامة والخطابة في الجامع الكبير، فلم يطلق على أبيه أو أجداده، وإنما أطلق هذا اللقب على أخيه الأكبر عبد الرحمن، ولقبه به الشيخ أحمد محمد أمين الراوي الرفاعي، المدرس الأول بالمدرسة العلمية الدينية في سامراء (مدير المدرسة)، إذ كان هناك أربعة طلاب أسماؤهم عبد الرحمن، فلقبه بالخطيب للتمييز بينه وبين الثلاثة لأنه كان يخطب الجمعة في أحد المساجد التابعة لسامراء.

أما أبوه وأجداده فكان يطلق عليهم (الملا) نحو ملا توفيق، وملا هبة الله، وملا مهدي، وهكذا بقية أجداده، ومنذ ذلك الحين أصبح كل من ينتمي إلى هذه العائلة يلقب بـ (الخطيب) وقد سمعت ذلك منه رحمه الله تعالى، وأما الذين تولوا الإمامة والخطابة في الجامع الكبير هم : الشيخ أيوب الخطيب، وأبوه السيد الملا توفيق، وجده السيد الملا هبة الله، والسيد الملا مهدي، والسيد الملا عاشور، والسيد الملا علي، والسيد الملا مهدي، والسيد الملا ثابت، إلا أنه لم يلقّب أبوه أو أحد أجداده بالخطيب، هذا ما سمعته منه رحمه الله تعالى، على أننا لا نملك الوثائق الرسمية

التي تشير إلى ذلك سوى وثيقة تخص السيد الملا مهدي، وهي فرمان عثماني يشير إلى تعيينه إماماً وخطيباً في جامع المهدي (الجامع الكبير الآن) في سامراء سنة ١٢٥٦هـ.

على أن هذه السلسلة استمرت في هذه المهمة بحدود عام ١١١١هـ إلى سنة ١٤٣٠هـ، وكانت الفتوى لهم طيلة هذه الفترة، وأطلق عليه بالشافعي الصغير، ولهذا سبب أيضاً، فقد روى السيد جمال هاشم محمد المليسي السامرائي، وكان طالباً في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية المطهرة فقال: دخلت مكتبة الجامعة صباح يوم لأجمع في ذهني معلومات وقلبت في كتبها الكثيرة، ومصادرها الجمة الغزيرة، فتهت بين جدرانها ساعات لأتصفح المواضيع وعناوين الكتب من علوم شتى، وما اله علم الأولين، وما أصلوه ببراعة في علوم الدين، فإذا بالشيخ الدكتور محمد ناصر فقيهي (عميد شؤون المكتبات) يطلع الطلبة، ويشاركهم همومهم، وتحقيق مخطوطاتهم، ويساعدهم في معرفة الكتب، ومؤلفيها، وعلمني على كتاب الخرج ما فتح الله عليه.

فسألني من أي البلاد أنت يا بني؟ فأجبته: من العراق وسامراء ولادة ودراسة، واستطرد قائلاً: بلد الشيخ العلّامة أيوب السامرائي، رأيته في المؤتمر الإسلامي الذي عقد بمكة المكرمة سنة ١٤٠٢هـ، وحضره أجلة علماء العالم الإسلامي، كأنه شرب فقه الشافعي شربةً هنيئةً، سألوه عن المسائل الفقهية في باب الهبات والتركات على المذهب الشافعي، فأفتاها برأييها القديم والحديث، وأناط استدلالاته، ومن خالفه ومن وافقه، فعرفته عالماً من خلال المؤتمر بأيامه الثلاثة، وبارك الله فيه، وفي علمه.

المطلب الثاني: نسبته:ـــــ

غلب لقبه نسبته، فجده السابع انتقل من الدور، وكان يطلق عليها سابقاً دور سر من رأى، وهي شمال سامراء بنحو ثلاثين كيلومتراً، إلى سامراء لتولي الإمامة

والخطابة في الجامع الكبير في سامراء، وكان يسمى بجامع المهدي آنذاك، فاستقر في سامراء، هو وخلفه لحد الآن، فلم يطلق عليه الدوري، ولا السامرائي، على أنه في بعض الدول الإسلامية إذا ذكر ذكره، يقولون: الشيخ أيوب الخطيب السامرائي، لأنه من مدينة سامراء.

وأما سبب انتقال السيد الملا ثابت من دور (سر من رأى) إلى سامراء، فلأن سامراء هجرها أهلها وعادت عاصمة الدولة الإسلامية إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ، بعد أن استمرت ثمانية وخمسين عاماً [١] ، فلم يبق فيها من أهلها إلا القليل، بينما كانت دور (سر من رأى) تزخر بالعلماء، فقد أخبرني رحمه الله تعالى أنه في احدى السنين منحت مئة إجازة علمية لطلاب العلم، وتقدر سنة انتقال السيد الملا ثابت من دور (سر من رأى) إلى سامراء بحدود ١١١١هـ .

المطلب الثالث: نسبه:ـــــ

يرجع نسب الشيخ أيوب الخطيب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وفيما يأتي سلسلة نسبه:

أيوب بن توفيق بن هبة الله بن مهدي بن عاشور بن علي بن مهدي بن ثابت بن رجب بن شعبان بن عبد رب النبي بن محمد بن حسين بن محمد بن حسين بن علي

---

(١)كانت سامراء عاصمة للدولة العباسية للمدة من ٢٢١هـ لغاية ٢٧٩هـ، ينظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: محمدبن جرير الطبري أبو جعفر (٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ٥/ ٢١٣.
والمسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ)، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤/ ٥٥، و٤/ ٢٢٧، وطاهر العميد: العمارة العباسية في سامراء في عهد المعتصم والمتوكل: الدكتور طاهر مظفر العميد، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م، ص ٢١٣.

المخل الشهير بإبن الماشطة بن محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن عيسى الكوفي بن علي بن الحسين الأصغر بن زين العابدين علي بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ .

المطلب الرابع: دراسته:ـــــ

كان دأب الناس حين ذاك أن يدخلوا أبناءهم منذ نعومة أظفارهم في الكتاتيب لقراءة القرآن الكريم وختمه مع الضبط، وبعد أن تم له ذلك التحق بالمدرسة الإبتدائية سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، وبعد أن أتم المرحلة الرابعة دخل المدرسة الدينية في سامراء [١] سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٢٧م، إذ كان لا يقبل فيها إلا من أتم المرحلة الرابعة من المدرسة الإبتدائية، وعلى أن الدراسة في المدارس الإبتدائية آنذاك كانت على مستوى عال من العلم، فقد ذكر لي (رحمه الله تعالى) أنهم كانوا يدرسون النحو في الصف الثاني الإبتدائي، وكانت الدراسة في المدرسة العلمية جادة، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن الدراسة في المرحلة الإبتدائية كانت على مستوى رفيع، إذ الدارس فيها لا بد أن يختم القرآن الكريم مع ضبطه ثم يتحول إليها، وكانت مدة الدراسة في

---

(١) أسست المدرسة الدينية العلمية في سامراء في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ـ رحمه الله تعالى ـ قرب مرقد الإمام علي الهادي رحمه الله تعالى سنة ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨م ، وتوجد على أحد جدران المدرسة لوحة بخط السيد عبد الرزاق حميد السامرائي،فيها أربع أبيات من الشعر من نظم الشيخ مصطفى أفندي الخطيبتثبت هذا التأريخ، وهي:

لقد أشرقت بالعلم مدرسة الهدى ... فلاحت شموس واستهل سعود
وقد جاوزت أبناء بنت نبينا ... فبالقرب من آل النبي نسود
بأمر أمير المؤمنين إمامنا ... خليفة خير الخلق وهو حميد
فأما مفيد العلم فيها فأرجوا ... فَيَمٌ وأما حظها فسعيد

ينظر: تاريخ علماء سامراء: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م، ص٩.

المدرسة العلمية اثنتي عشر سنة، يمنح المتخرج فيها الإجازة العلمية في علوم الشرع وعلوم اللغة العربية، فدرس على يد الشيخ أحمد محمد أمين الراوي الرفاعي (تـ ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م) العلوم الشرعية، وعلى يد الشيخ عبد الوهاب حسن البدري

(تـ ١٢٧٢هـ = ١٩٤٥م) علوم اللغة والنحو والمنطق، كما درس على يد والده السيد توفيق الخطيب (تـ ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م) بعض الكتب.

تخرج من هذه المدرسة المباركة سنة ١٣٦٣هـ = ١٩٤٢م متفوقاً على جميع أقرانه حاصلاً على الدرجات الكاملة، فمنح الإجازة العلمية بجدارة.

وبعد تخرجه استمر يدرس على يد شيخه أحمد الراوي وعبد الوهاب البدري (رحمهم الله تعالى) خمس سنوات أخرى كتباً إضافية غير ما درسها خلال سنوات الدراسة الاثني عشر، وكان (رحمه الله تعالى) ذا خط بارع، وتنظيم دقيق، وحاز على ثقة شيخه المدرس الأول الشيخ أحمد الراوي (رحمه الله تعالى) فأسند إليه مهمة تنظيم سجلات الإدارة فنظمها تنظيماً حسناً، بل كان يستلم الكتب الرسمية ويجيب عليها، فيقدمها الى شيخه ثم يوقع عليها.

وعن ذلك يقول الشيخ مخلص حماد الراوي:

" وكان الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) مسؤولاً عن سجلات المدرسة العلمية الدينية، وهو في غاية ومنتهى الدقة والترتيب "

وقد أخبرني أكثر من مرة بأن الشيخ الراوي (رحمه الله تعالى) أسند إليه تصحيح أوراق الإمتحانات للطلاب، ومن ضمن ذلك المرحلة التي هو فيها، وقال لي: كان الشيخ (رحمه الله تعالى) يقول لي: أيوب صحح الأوراق ولا تضع لنفسك مئة،

ويقول: فأصحح الأوراق إلا ورقتي، ثم أجلس بحضرة الشيخ، فأقرأ ورقتي، فيقول: ضع مئة[١].

ولا بد من الذكر بأن الشيخ الجليل العالم العلّامة عبد العزيز سالم السامرائي كان من أقرانه في الدراسة، ونالا الإجازة العلمية في نفس السنة.

المطلب الخامس: شيوخه:ـــــ

اولاً: الشيخ أحمد الراوي (١٣٠٠ ـ ١٣٨٥) هـ .

ثانياً: الشيخ عبد الوهاب البدري (١٢٩٤ ـ ١٣٧٢) هـ .

ثالثاً: الشيخ توفيق الخطيب (١٣٠٢ ـ ١٣٨١) هـ .

---

(١) من المعروف عن الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) إذا ذكرالشيخ أحمد الراوي (رحمه الله تعالى) فإنه يكتفي بقول: قال الشيخ، أو كان الشيخ، أو أمرني الشيخ، فيعرف المراد من ذلك بأنه الشيخ أحمد الراوي (رحمه الله تعالى).

المبحث الثاني

أقوال العلماء فيه، وتلاميذه وعلاقته بهم، وشعره

المطلب الأول: أقوال العلماء فيه:ـــــــ

قال الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الملك السعدي:

" ويعد الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) من أبرز علماء العراق، لا بل من أبرز علماء العالم الإسلامي " وقال أيضاً:

" فقد عرفته عالماً تقياً ورعاً زاهداً، محباً للعلم والعلماء وطلاب العلم، لم ينزع إلى الدنيا، ورضي بضيق العيش إيثاراً للعطاء العلمي ... صاحب مجلس ممتع أدباً وشعراً وإصلاحاً ... من يجالسه يشعر بأنه جليس أحد السلف الصالح، يتأثر بخلقه الرفيع، ويشعر منه باللطف والحنان الأخوي والأبوي ... من يصاحبه يشعر بأنه هو الوحيد المحبوب عنده، كان مفتياً ورعاً في فتواه، يميل إلى فقه الإمام الشافعي، ويفتي بفقه غيره إن اقتضى الأمر، فهو مذهبي غير متعصب.

وقال أيضاً:

يغضب في الله تعالى، ويرفض الانحراف الفكري والأخلاقي، وكان انشغاله بالتعليم والإرشاد وصولات الوعظ هي العامل الأساسي في عدم اتجاهه إلى التأليف، مكتفياً بما كتبه السابقون.

وقال أيضاً:

" وكان الشيخ عبد العزيز السالم دائماً يتحدث عن الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) ويصفه بأوصاف طلاب العلم النابغين الحريصين على الحفظ والوعي، الورعين في تلقيه، وإلى جانب ذلك كان يضفي عليه من الخصال الحميدة التي يتصف بها أهل الورع والتقوى، فكان يصف لنا اعتكافه في المدرسة الدينية في

سامراء، حيث كانت المدرسة ذات غرف عديدة، وكل طالب له غرفة مستقلة عن زملاءه، يختلي فيها ويذاكر دروسه، حتى لا ينشغل مع الآخرين، وكان من بينهم الشيخ أيوب الخطيب يسهر الليالي فيها دراسةً ومطالعةً ومتابعةً.

وكان اهتمامه بعلوم اللغة العربية أكثر من العلوم الأخرى، لأنه يؤمن بأن تعلّمها أساس لفهم نصوص الكتاب والسنة، ومصادر الفقه على اختلاف مذاهبه.

ويقول: " كان دقيق الفهم، سريع الحفظ، واسع الإطلاع، ثاقب الذكاء، قل من يدانيه في تحضير الدروس، لا يخرج من المدرسة إلا بقدر الحاجة ... وكان في عصره فريداً في خطبه وأسلوبها، يترجل الخطابة في وقت كان الارتجال مفقوداً لدى خطباء العراق، وكان مضرب المثل للخطيب المصقع البارع المؤثر " .

يقول الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد حسن الطه:

" لم أعرف أحداً أفضل من الشيخ أيوب الخطيب في النحو من زاخو إلى الفاو ".

قال الشيخ عبد العزيز سالم (رحمه الله تعالى) :

يعتبر المرحوم المبرور الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) من الوجبة الأولى من طلاب الشيخ المبرور السيد احمد محمد أمين الراوي الرفاعي(رحمه الله تعالى)

والوجبة الأولى هم : الشيخ عبد العزيز سالم السامرائي، والشيخ أيوب الخطيب، والشيخ عبد الكريم الدبان، والشيخ محمد الجبوري، وهؤلاء المشايخ الأجلاء (رحمهم الله تعالى) قد شاركوا في النهضة العلمية والدينية في أنحاء العراق مشاركةً مباركةً، ومثمرة لا تزال آثارها ملموسة إلى يومنا هذا، كما هو معلوم للجميع، وفي الأربعينيات بعد أن أعيدت المدرسة العلمية الدينية في سامراء بجهود الشيخ أحمد محمد أمين الراوي، مدرسة دينية تابعة لديوان الأوقاف حصلت حركة علمية لفتح مدارس دينية في بعض المحافظات والأقضية والنواحي، وممن اشترك بالإمتحان على هذه

المدارس الشيخ عبد العزيز بن سالم (رحمه الله تعالى) ، والشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) وكانوا من طليعة الطلاب الذين اشتركوا في هذا الامتحان .

وقال الدكتور إبراهيم ياس خضير الدوري:

بسم الله الرحمن الرحيم لله دره كيف كان يعلم ويربي، وكيف قضى سنوات عمره المديد، وهو حريص على كل ما يقوم ويهذب ويشذب ويبني، ذلك هو الشيخ الفقيد الملا أيوب الخطيب، الذي ما فتأ منذ أن أبصر النور حتى آخر العمر، يبعث في أهل هذه المدينة المقدسة " سامراء " نسائم توجيهاته بروحانية عذبة، وسيل رقراق، وخلق كريم، وسمت مبارك وضاء.

أحاديثه بذكر الله عامرة في مجالسه الخاصة، وفي ندواته ودروسه في المدرسة العلمية أو في الحشد يوم الجمعة وخطبتيها، يهز أعواد المنابر، ويحس شغاف القلوب برقة وحنان ويحارب البدع والخرافات التي رانت على النفوس ويحيي بكلماته موات الأفئدة.

وقال الحاج وليد الأعظمي (رحمه الله تعالى):

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آلهالأطهار وأصحابه الأخيار ومن تبعهم وسار على هديهم إلى يوم القيامة وبعد:

فإن شخصية العلّامة أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) متعددة الجوانب، بالغة التأثير من حيث التربية والتعليم والسلوك والوعظ والخطابة والعلاقات، فقد كان يرحمه الله له في كل مكرمة نصيب، وأول ما نلحظه فيه أنه له من اسمه (أيوب) حظ وافر، فهو رجل أواب إلى ربه الكريم، شديد الأدبة دائم للذكر، ملازم للأوراد والأدعية المأثورة التي تزيد القلوب نوراً والنفوس بهجةً وسروراً، فإذا زرته وجلست

عنده، فإنك تشعر بالسكينة والطمأنينة والراحة، وإن لم تتكلم معه.

فقد كانت لمجالسه روحانية عالية، يزينها تواضع العلم وبساطة الصالحين والبراءة وعدم التكلف، وأما أسلوبه في التربية والتعليم فإنه كان مقتدياً بالهدي النبوي في التأني والاصطبار ورعاية طلابه والمثابرة على الدروس والمتابعة المستمرة،ولو بمادة علمية يسيرة فإنه كان يعمل بالحكمة والقول المأثور" قليل دائم خير من كثير منقطع" وكان طلابه يتعلقون به لما يجدون عنده من الحب والحنان والعاطفة الصادقة والإخلاص مع الله تعالى ومع النفس ومع الناس.

وقال الشيخ ياسين منصور السعدي:

الأخ الكريم وابن الأخ الكريم المرحوم السيد السيد أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) عبد الحليم المحترم السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أخي أذكر لكم أدناه ما يفتح الله لي عن حياة الشيخ المرحوم " الحركة العلمية هو مرجع القاصي والداني، وخاصة بعد وفاة الشيخ عبد الوهاب البدري، والسيد أحمد الراوي، أما معلوماته فهو عالم وعامل بما علم ومطبق لأحكام الشريعة الموقرة، معاملته مع الناس طيبة وجيدة، ومرضية وهي التي جعلت في قلوب سامراء الحب له، أما معاملته مع طلبة العلم فكانت كالأب وأبناءه، أما عن الفتوى فكان مرجعاً للسائلين، كان (رحمه الله تعالى) زاهداً في الدنيا، وورعاً في أحكام الشريعة، وفتواه طيبة حتى لا يترك السنن المحمدية، كان عليه من الله الرحمة من المحبين للتصوف وأهله.

ويقول ابنه عبد الحليم:

" سمعته أكثر من مرة يقول: لولا العربية لما علمنا من أمور ديننا شيئاً " .

" كنت كثيراً ما أقوله له: يا أبت لم لا تؤلف ولو كتاباً ؟ فيجيبني: يا بني لم يدع العلماء (رحمهم الله تعالى) شيئاً لم يكتبوا فيه " .

وقال لي أكثر من مرة: طلبوني قاضياً في البصرة براتب مقداره خمس وخمسون ديناراً فرفضت، وكان هذا المبلغ يعد في ذلك الوقت ثروة، وتعيّنت إماماً في مسجد حسن باشا بدينار واحد، ودينار لغلاء المعيشة، فكنت أستلم دينارين " .

المطلب الثاني: تلامذته وعلاقته بهم:ـــــــ

لقد تخرّج على الشيخ (رحمه الله تعالى) علماء أفذاذ، وأساتذة كبار لهم أكبر الأثر في الثقافة الإسلامية، بل أكثر علماء العراق هم من تلاميذه، منهم الدكتور هاشم جميل ألمع أستاذ في الفقه المقارن، والدكتور عبد الله الجبوري، وناس آخرون هؤلاء هم الرعيل الأول، أما المتأخرون فلا يحصى عددهم، أما علاقته مع تلاميذه فهي علاقة روحية مبنية على الرحمة وحيازة الخير لهم.

وكثيراً ما كان يؤثرهم على أولاده، كان (رحمه الله تعالى) كثير المكث في المدرسة، يراقب طلابه ويلحظهم بالتربية والتوجيه، ما ترك المدرسة حتى عند مرضه كان يأتي قبيل صلاة الظهر، وكان يفرح عند رؤيته لطلابه وهم يقرؤن، وكان قلبه مع طلابه أحبهم حباً يفوق حد التصور، وكان (رحمه الله تعالى) يرعاهم بالنصيحة، ويرفق في ذلك وربما أشار إشارة، أو اكتفى بذكر حديث أو آية، ولا يغلظ القول معهم، وكان يساعدهم كثيراً فينفق عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان يحث أهل الخير على التبرع لهم.

بل كان هو (رحمه الله تعالى) يعطيهم من ماله الخاص في بعض الأحيان وكم تحمل بعض الأعباء المالية لبعض الطلاب حتى بعد أن تخرجوا، وأذكر جيداً اني كنت أشتغل بالعطلة الصيفية في حانوت لبيع المخضر، فقال لي : يا مجيد مثلك طالب علم لا يشتغل بغير العلم، فكان والله يكرمني ويعطيني ما يكفيني، وكان يشجعني على المطالعة، وكان قدوتي في ذلك.

ماذا أقول عن رجل فقدته الأرض، وشيعته السماء، وشهد له أهل الأرض بالرضوان والإخلاص لربه، فكأني أنظر إليه وهو في حبور وسرور عند الملأ

الأعلى، لقد كانت كل شعرة من شعراته وكل عضو من أعضاءه ينطق بأنه كان من أهل الصلاح والتقوى، تسربل بسربال الحياء والوقار، وألزم نفسه عند حدها فأدبها وأحسن إليها.

فقالت نفسه يا شيخ: قد وصلت مقامك، ونلت مرادك، فتقدم للقاء الحبيب رب العالمين، فنم يا شيخ قرير النفس، مطمئن برضوان الله ونعماءه فسلام الله عليك حياً وميتاً، ومن أعجب ما حصل في آخر حياة الشيخ (رحمه الله تعالى) أن لحيته كانت بيضاء تماماً من وقت مبكر، وقبل بلوغه الثمانين وبعد ذلك أخذت تعود بالتدريج إلى لونها الأسود الطبيعي حتى غلب عليها السواد .

المطلب الثالث: شـــعـــره :ـــــــ

وقد وجدت هذه القصيدة، وقد وقع عليها الشيخ (رحمه الله تعالى) وهي بعنوان(من وحي التصوير)، مؤرخة في ٨/ ٥/ ١٩٤٨م، وأبياتها هي:

وصورة من ملاك جاء يجليها تبارك الله رب العرش معطيها

حسبتها الشمس إذ لاحت مشعشعةً أو طلعة البدر تحكيه ويحكيها

كأنها قبس من ضوء بارقةٍ أو شعلة سطعت نوراً لآليها

أولا فنبراس الماس تحيط به لئالئٌ حلقت فيها دراريها

أو أنها من عصير النور قد خلقت فراق منظرها الزاهي لرائيها

سر النبوغ يرى من سحر هيئتها وآية الحلم خطت في حواشيها

هذي أساريرها كالشمس مشرقة وذي ملامحها دقت معانيها

نظرتها فاحصاً عن سر روعتها وعن محاسنها الآئى انطوت فيها

فعاقني عن مرادي النور ملتهجاً كالبرق يخطف أبصاراً يلاقيها

يا صورةً لست أدري كيف انعتها جلت عن الوصف تقريباً وتشبيهاً

تفضل القلب في إرسالها كرماً لكي يقرب من روحي أمانيها

سألتها ويقيني دمعة حبست أأنت صورة قلبي يضاهيها

فأفصحت بلسان الحال قائلةً نعم نعم أنا هي فاشكر لمهديها

شكراً لقلب سما خلقاً ومنزلةً وحاز ذروة العليا أعاليها

لو كانت الروح مهداة تكافئه لكنت أول من للروح يهديها [1]

ويردد (رحمه الله تعالى)أثناء تجوله في الباحة العلوية " الطارمة " في المدرسة الدينية هذا البيت:

مشيناها خطاً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطاً مشاها

ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموت في أرض سواها.

وكان يردد بيت من نظمه يعبر به عن بشاشته وطرافته بقوله (رحمه الله تعالى) :

الله يشهد والأنام تعرفنا إنا كرامٌ ولكنا مفاليس .

وقد جدت هذه القصيدة، وهي الشيخ (رحمه الله تعالى) بعد ثورة الشواف ونكبة الموصل، عام ١٩٥٨م، وأبياتها هي:

---

(1)الشيخ أيوب الخطيب في ٢٨ / جمادى الثاني سنة ١٣٦٧هـ.

طال ليلي وطال فيه سهادي ... وتولى عن مقلتي رقادي

واستطار الفؤاد غماً وحزناً ... من خطوب تحز في الأكباد

كاد عقلي يطيش مما أراه ... من فجور ومنكر وفساد

أصبح الدين يا أخي غريباً ... في بلاد الإسلام بل له الأعادي

وغدا الناس زمرةً بعد أخرى ... تتهاوى في حمأة الارتداد

وتفشى الإلحاد والكفر جهراً ... في ربوع العراق في كل ناد

تركوا الدين جانبا واستعاضوا ... بمبادٍ تباً لها من مباد

جلبوها من ملة الكفر حمقا ... واستقروا في الموبقات الشداد

وتراهم مستبشرين سكارى ... بالذي قد أتوه من إلحاد

يضحك النذل منهموا ملئ فيه ... مستهيناً بدين رب العباد

إن نجم العراق ما زال يهوي ... في أفول إلى حضيض الوهاد

مذ تولى مناصب الحكم فيه ... أدعياء من أرذل الأوغاد

وتولى الزمام خب لئيم ... لا كريم كما يقول المنادي

شرس الطبع شأنه الغدر نكس ... خائن العهد مخلف الميعاد

مذق الخلق ذو خداع عجيب ... وازدهاء بنفسه واعتداد

يدعي الطهر وهو رجس خبيث ... ومريد طغيانه في ازدياد

يدعي النبل والإخـ ... ... لاص كذباً ولا يفي بوداد

كم صديق له عليه أياد ... قد جزاه بالسجن والإبعاد

غره المنصب الذي هو فيه فتعامى عن الهدى والرشاد

وتمادى في غيه وتباهى مثل فرعون صاحب الأوتاد

المبحث الثالث

عبادته وزهده وتواضعه (١)

المطلب الأول: عبادته:ـــــــ

أما عبادته فقد رزقها منذ الطفولة، فلم يعرف عنه إلا حسن الخلق، والاستقامة على الدين، ومصاحبة أبيه في المسجد وهو صغير، واختلافه إلى دور الكتاتيب.

ولما شبّ وبلغ مبلغ الرجال، ألزم نفسه بالترقي بالعبادات من الفرائض والنوافل، وقد تكون أخص منعة فيه هي لزومه العبادة والتقوى، ولم تكن هذه العبادة مصطنعة، ولكنها عن علم وروح مؤمنة أحبت الله تعالى فلزمت نفسها عند هذا الحب الإلهي، وكثيراً ما كان يقوم في جوف الليل متعبداً، ولم يكن له ولع في الدنيا وزينتها.

وقد تحدث هو عن نفسه بأنه كان لا ينام من الليل إلا قليلاً، ولم يقل هذا تفاخراً بنفسه، وإنما قاله في معرض سؤال وجهته إليه أنا إليه، لماذا لم تؤلف يا شيخنا؟ قال: كانت فرصة مواتية لي لأني لم أكن أنم الليل إلا قليلاً، وقد أثر السهر فيه وفي صحته منذ نعومة أظافره فكل من يراه يعرف أنه قوّام الليل تالي القرآن.

وقد عود نفسه بل وألزمها على أن يصلي أكثر النوافل قبل صلاة الضحى، كان يصلي ركعات والأوّابين، بين المغرب والعشاء يصلي عشرين ركعة، لا يتركها لا في رمضان ولا في غيره، وفي بعض الأحيان يبقى إلى العشاء، لقد سلك في عبادته مسلك الرجال المربين من أولياء الله الصالحين، لقد تعب على نفسه فتربى تربية

---

(١) هذا المبحث من رواية مريده وتلميذه والمدرس تحت إمرته في المدرسة العلمية بسامراء، الدكتور عبد المجيد محمد أحمد، فقد دونت هذه المعلومات بعدما طبعها الزمان في ذاكرتي ومدوناً سيرته لأجيال من الزمن، ولن يمحوها بإذن الله تعالى إلا الأجل.

خاصة، يندر أن نجدها عند عالم مثله، كأن الله تعالى أراد به أن يكون هادياً لأهالي سامراء ورزقهم هذا الشيخ الذي سلك معهم مسلك الرجال الذين يكون لآخرهم من

بعدهم مثالاً يحتذي به، ونموذجاً يدخل التأريخ من أوسع أبوابه، أعود فأقول لكثرة عبادته كان الناس ينظرون إليه، ويظنون فيه الولاية، وهو ينكرها تواضعاً لله تعالى، وهذا ليس بكلام عابر، لقد كنت جالساً عنده، وجاءت مجموعة من الشباب فقالوا: يا شيخ نريد أن نسلك الطريقة على يديك، فقال: أنا لست بشيخ، هناك شيوخ كثر وذكر بعض أسماءهم.

بل أنا شخصياً طلبت منه ذلك، ومن ظاهر عبادته أنه كان يحرص على حضور صلاة الجماعة في المسجد الكبير، وكان يأي من بيته البعيد عن المسجد بعد انتقاله من البيت القديم لصلاة الفجر بالرغم من بعد المسافة، وفي بعض الأحيان يأتي مشياً، ولكن كان رجل اسمه الحاج محمود صديقه ويحبه كثيراً يأتي إليه بسيارته من مكان البريد إلى بيت الشيخ الكائن قرب الملوية.

وكان يؤدب كل من يفرط بصلاة الفجر، وكان في أثناء خروجه يمر على بعض الطلبة وهم يقرؤن يدخل السرور عليهم، فيؤثر فيهم، فكان كل عمله دعوة لله تعالى، وقد واظب على قراءة سورة يس بعد صلاة الفجر، ويقرأ كذلك دلائل الخيرات في الصلاة على النبي، ويذهب لزيارة سيدنا علي الهادي،ويقرأ الدعاء له ويكون معه في هذه الزيارة بعض المسلمين، وعند الفراغ من الزيارة وقراءة القرآن كان الناس يستغلون هذه الفرصة للسؤال عن تفسير آية أو حكم شرعي.

ومن عبادته أيضاً كان رحمه الله تعالى يتهيأ لاستقبال رمضان بشكل ملحوظ من حيث تهيئة إمساكية رمضان، وسد شواغر للمساجد، وتهيئة من يصلي بالناس التراويح، وكان يصليها عشرين ركعة، لكنه صلاة متوسطة، يحبها كثيراً من الناس، وكان يقرأ بصوت رخيم وشجي، حيث رزقه الله صوتاً مؤثراً، وكان مسجده العامر به يغص بالمصلين.

وكان لا ينقطع عن صلاة التراويح، إلا خلال السنتين اللتين أعاقه المرض العضال فيها، بل كان في بعض هذه السنين وهو مريض كان يقوم بالوعظ فلم ينقطع عن الصلاة، أي التراويح إلا أن أصبح لا يستطيع أن يصلي إلا على كرسيه.

وما مات إلا وهو قد صلى صلاة الصبح، فلم تفته صلاة حتى وهو على فراش الموت، وكانت عبادته في رمضان تفوق حد الوصف، فكان يصلي التسابيح وبعدها يقرأ الوترية (وهي قصائد في مدح المصطفى) في كل يوم حرف من الحرف، وكان يقرأها بصوته الندي، وفي بعض السنين كان يقرأها المرحوم الحاج سعيد الكريم، وكان يقرأها أيضاً الحاج مجيد الملا طه وهو يسمع ويردد معهم، وهذه الوترية تكون بعد الحلقة التي تكون يومياً في رمضان، وبعدها يخرج من المسجد إلى المدرسة العلمية، ويعقد جلسة علمية من غير أن يعد لها، وتطرح خلالها الأسئلة، وشؤون الناس العامة والخاصة، وكان رحمه الله تعالى إذا صلى الفجر في رمضان لا يذهب إلى بيته، بل يدخل غرفته الخاصة به في المدرسة ينام قليلاً، ثم يستيقظ لصلاة الضحى ويصلي الظهر، ويبقى فيها يراجع بعض الأمور الخاصة بدرس الوعظ من المصادر المتوفرة لديه، وكانت في غرفته مكتبة صغيرة يحتاج إليها في بعض المسائل.

وعندما تحين صلاة العصر يذهب إلى المسجد فيصلي، وبعدها يشرع بالوعظ، وبعد الوعظ يأتي إلى غرفته لتلاوة القرآن الكريم إلى صلاة المغرب، ويصلي المغرب قبل أن يفطر، وقبل العشاء يذهب إلى بيته لتناول الإفطار، هكذا ألزم نفسه وما غير هذا الطريق إلى أن أقعده المرض العضال، فهو في رمضان يأتي من الفجر ولا يذهب إلى أهله إلا قبيل العشاء، اللهم إلا أنه لما كان البيت القديم قريب من المسجد، كان يذهب بعد صلاة العصر لزيارة والدته حال حياتها، وكذلك كان يزورها بعد صلاة الجمعة لأنها كانت تسكن في بيت أخيه المرحوم عبد الرحمن الخطيب (رحمه الله تعالى)

المطلب الثاني: زهـــــده:

أما زهده فهو زهد الصالحين، والعلماء الربانيين، والزهد عنده قد يكاد يكون من أهم ما يمتاز به الشيخ، ومن مظاهر زهده أنه كان لا يبالي بالأمور المادية، وما كان يسأل أحد هذه الناحية، وكان عفيف المطعم، والملبس، والمأكل، لا يأكل طعاماً إلا أن يعرف مصدره، وكان يسأل أهله إذا جاءتهم هدية، وكان قليل الأكل، قليل النوم، وهذه هي الزهادة، وكان يبتعد عن مواطن الشبهة.

وكان (رحمه الله تعالى) لا يدري متى يرفع إلى درجة، أو تأتيه العلاوة السنوية، وكان لا يدري ما مقدار راتبه الشهري، ولا يبالي إذا نقص أو زاد، بل بقي فترة غير قصيرة راتبه الشهري عندما كان إماماً في جامع حسن باشا دينار واحد حسب ما قال هو، بل وبقي مديراً للمدرسة الدينية (المعهد الإسلامي) الذي كنت أدرس معه عند التحقت بالتربية من غير راتب.

بل كان لا يسجل محاضرة لا يدرسها، وكان يعطي بعض المدرسين راتباً من عنده ولا أريد أن أذكر أسماءهم، كان له نظر وفطنة، فهو يعرف المقابل ما يريد أن يتكلم قبل أن يتكلم، وأذكر انه كثيراً ما كان يأتيه الأئمة والخطباء يطلبون منه أشياء مادية لهم، فيقول لهم أطلبوها أنتم أما أنا فليس لي بها حاجة.

ومن زهده أنه لما رفعت الفائدة من بناء البيوت في سنة ١٩٨٠م، وكان بيته في بداية بناءه، وعمل معاملة للأخذ من البنك، وعند التسليم سأل الموظف فقال: يا شيخ نأخذ فائدة على التأمين للبيت من أحداث الطريق، والتأمين على الحياة، فسحب المعاملة ولم يأخذ، علماً بأن أكثر أهالي سامراء أخذوا هذا القرض، وبعدها حصل نقاش حول التأمين، وكنت أنا من الذين وجه إلي هذا السؤال عنه، وقال لي يا مجيد ابحث لنا هذه المسألة، وجئت وقلت له: يا شيخ أن العلماء مختلفون فيها، وفيها شبه فتوقف هو (رحمه الله تعالى)، وألح عليه بعض الأئمة والخطباء قال لهم: أنا لا آخذ.

ومن مظاهر زهده (رحمه الله تعالى) رفضه بعض المناصب الدينية، فقد عرض عليه التدريس في الكليات، وعضوية المجلس العلمي في الأوقاف، ويومها كان لا يرشح لهذا المجلس إلا المتأهل للفتوى والمتضلع في كل فنون الشريعة والعربية، وقد عرض عليه التدريس في كلية الإمام الأعظم، وأنا يومها طالب فيها فرفض، ثم بعدها عرض عليه عضوية مجلس الأوقاف وتردد كثيراً، وكانت الأعناق تشرئب إليه، وتتطلع عليه ويوسطون من يوصلهم إليه بينما هو رفضها، فقال له المحبون: والله يا شيخ أنت أحق الناس به، وفيه فائدة للمسلمين، ثم قنع ورضي، وكان لا يسجل أجرة السيارة التي هي مخصصات له إلا الأجرة الحقيقية، وفي بعض الأحيان السواق لا يأخذون منه فلا يسجل مذكرة السفر.

المطلب الثالث: تواضعه:ـــــــ

أما تواضعه (رحمه الله تعالى) فهو واضح، وهو صفة ملازمة له، فكان (رحمه الله تعالى) لا يرضى أن يقبّل أحد يده، بل كنت كثيراً ما أشتاق إلى رؤيته لأتشرف بزيارته، والنهل من معين علمه، وكانت لحظات عزيزة، وكان أهلي يسألون عنه: هل رأيت الشيخ؟ فأقول: نعم، وأبدأ أحدثهم عنه.

ولما أهم أقبل يده يسحبها ولا يرضى، وكذلك عندما كنت أسير معه وهو خارج من المدرسة العلمية، وأكون خلفه كان لا يرضى أن يمشي أحد خلفه، ولكوني قضيت معه في التدريس ما يقارب من عشرين سنة، فقد صاحبته كثيراً فعرفت عنه الشيء الكثير فقد كان من مظاهر تواضعه أنه كان يحمل حاجته بيده، وكان هو الذي يشتري للبيت، من طعام أو شراب، وكان إذا صلى الصبح وقف بنفسه على أصحاب المحلات.

ولما كنا معه في المدرسة العلمية ما رأيته استخدم أحداً لقضاء حوائجه، بل كان يعتمد على نفسه في عمل كل ما تتطلبه أمور المدرسة، وكنا نلح عليه بالمساعدة

له، فكان لا يرضى إلا أن يقوم هو بنفسه، وعندما يطلب أحد منه أن يحمل عنه بضاعة، فيقول: (صاحب الشيء أحق بحمله).

وكان يكره أن يكلف أحداً لقضاء حوائجه، وكان يسمع الفقير والجاهل، وما كان

يعيب طعاماً لأحد، ويسلّم على الصغير والكبير، ومن مظاهر تواضعه أنه كان يقف على أبواب الفقراء والمحتاجين، ويوصل إليهم بنفسه ما هو مقسوم لهم، وكان يصغي إلى متحدثه، وإن كان أصغر منه، أو أقلّ علماً منه (رحمه الله تعالى).

المبحث الرابع

صـــفـــاتـــه وأخـــلاقـــه[1]

المطلب الأول: صفاته:ـــــــ

كان (رحمه الله تعالى) دائم البشر والمحيا إذا دخل المدرسة يعرف دخوله من رفع صوته بذكر أو دعاء تنبيهاً لمن كان فيها يقول (لا إله إلا الله)، وهذا خلق رفيع،وإذا جلس في غرفته التي كانت أوى للعلم والعلماء يبدأ في المطالعة والقراءة، وكان لين الحديث، سمح الطباع، يبدأ مجلسه بالحديث والتحية الطيبة، ويحب النكتة المشروعة، ويملي مجلسه بالفوائد العلمية، ويبادر جلساءه بالنظر الشامل، ويحسن إلى جلساءه، ويسأل عن ظروفهم وأحوالهم، ويتألم لآلامهم، ويتقيد بالآداب العامة، والضيافة العربية المشهودة له.

والله قد تعلمنا منه الخير الكثير، وأدبنا على أمورما عرفناها إلا منه، وكان الحق رائده، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد سمعت منه هذه الكلمة ولم أقرأها في كتاب عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: (إن هذا الحق ما ترك لي صديق) يسمع من الصغير والكبير، ويحترم أهل العلم، ويسمع منهم، ولا يحتقر أحداً وإن كان جاهلاً، وكان يبتسم في وجه قادمه إقتداءاً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسأل عن أصدقاءه، وطلابه، وكان يفرح إذا سمع طالباً من طلابه تفوق أو حصل على

شهادة عليا، بل كان يحثهم على ذلك، هذه الصفة قد لا توجد إلا فيه وفي أمثاله.

وكان يزور طلابه وأصدقاءه إذا حصل لهم شيء، ويألفهم الحديث، لا فرق عنده بين غني أو ضعيف، وينزل الناس منازلهم، وكان كثير الحياء، دائم الفكر، عوّد

---

(1) هذا المبحث من رواية مريده وتلميذه والمدرس تحت إمرته في المدرسة العلمية بسامراء، الدكتور عبد المجيد محمد أحمد، فقد دونت هذه المعلومات بعدما طبعها الزمان في ذاكرتي ومدوناً سيرته لأجيال من الزمن، ولن يمحوها بإذن الله تعالى إلا الأجل.

نفسه أن يجلس لوحده في كرسف العلم والأدب، وكان يتلطف بالجاهل، ويسلم على الصغير.

وكان عليه وقار وسكينة، حتى إذا مشفكل من رآه ولم يعرفه شعر من داخله أن هذا الرجل من بقية السلف الصالح، والرجال المربين، وإذا ما مر في الطريقلا تجد إلا وهو قائم له إحتراماً.

لم يكن يملك سلطة في احترام الناس لكن لهدوءه وخلقه، كان الناس له بونه، حتى إذا مر بالطريق لا يبقى صغير ولا كبيرإلا أخذ بيده وقبّلها، ما كان يتكلم في الطريق إذا رأى منكراً، ولكن صاحب المنكر بمجرد يرى الشيخ يقلع عن منكره.

المطلب الثاني: أخلاقه:ـــــــ

كانت أخلاقه تتكلم بالحق، وكان التزامه بأوامر الشرع نابعاً، من نفس عزفت عن الدنيا، وتعلقت بخالقها، نفس أبية لا تبالي بالدنيا شرقت أو غربت، لا يهمه أن يرضى الناس على حساب سخط المولى جل شأنه، كان التزامه بالشريعة معنوناًبكلمة مأثورة (لا يهمنا إذا جاء موسى أو فرعون)، هذه الكلمة كان يقولها عندما يتغيّر مدير للأوقاف ويأتي بغيره، وكما يدل أنه لا يحتاج إلى مراقب غير الله تعالى، وكيف لا وهو العابد الزاهد المتهجد في جوف الليل والناس نيام.

وفي أخلاقه أنه كان يصل رحمه، ويتفقد الفقراء والمساكين، وخير شاهد غرفته في المدرسة العلمية لها خصوصيتها، حيث أنك تجد كل يوم أو أسبوع فقير أو أرملة تسأله المساعدة، وكان يعطي من يتعمده من غير تمييز، حتى إن بعض الناس يأتون إليه من المحافظات الأخرى فإذا لم يكن لديه مال من الصدقة أعطى من ماله الخاص، وما رأيته ردّ سائلاً قط، وكما كان يحل مشاكل الناس، ويسعى في قضاءها من شتى أصناف الناس من سامراء أو غيرها، لا فرق في ذلك بين قريب أو غريب،

فكان بمثابة ولي أمر المسلمين، خدم أهالي سامراء وغيرهم بكل ما استطاع، وكان يحضر جنائز المسلمين، ويصلي عليها، ويعزي أهل الميت، ويرشدهم إلى أحكام الشريعة، وكان يشغله أمر الإسلام والمسلمين.

المبحث الخامس

تـــصـــــوفـــهوورعـــــه (١)

المطلب الأول: تصوفه:ـــــــــ

يعد الشيخ (رحمه الله تعالى) بحق واضع التصوف في سامراء، ومؤسسه من الناحية الفكرية والعلمية، حيث أنه زرع في نفوس أهل سامراء حب التصوف عن الطريق العلمي، وذلك بإقامة الأدلة المنطقية من كتب المنهج الصوفي على صحة الطريق، وذلك بكثرة مطالعته في هذا الجانب وقد كرّس نفسه للدفاع عن هذا المنهج، فما من مناسبة إلا واستقبلها وبين أصول هذا المنهج وقواعده، وكثيراً ما كان يردد كلام أعلام هذا المنهج، مثل الجنيد البغدادي، والشيخ عبد القادر الكيلاني، والسر السقطي، وأحمد الرفاعي، وكان على علم واسع بحياة وتراجم هؤلاء الأعلام، وما صحّ عنهم من أقوال، وأفعال، وأحوال.

وكان يحب الاستشهاد بنصوص صاحب الحكم العطائية، وكان يفتتح خطبته بنص من الحكم في كثير من الأحيان، وهذه المعرفة لهذا المنهج لم تكن لتبدأ من فراغ، فكان (رحمه الله تعالى) قد قرأ المئات من الكتب الصوفية، وكان صاحب

ذوق فيما يقرأ ومكتبته عامرة لهذه الكتب، بل كان (رحمه الله تعالى) في بعض الأحيان يصف هذه الكتب من حيث الصعوبة بأنها لا تحصل لكل واحد، مثال ذلك كتاب (الإنسان الكامل) لعبد الكريم الجلي لصعوبته كأنه طلاسم.

ومع علم الشيخ في هذا الجانب كان يلاقي صعوبة في فهمه، كما صرّح هو بذلك (رحمه الله تعالى)، لذبك فهو لا ينصح بقراءته لكل واحد، وكان (رحمه الله

---

(١) هذا المبحث من رواية مريده وتلميذه والمدرس تحت إمرته في المدرسة العلمية بسامراء، الدكتور عبد المجيد محمد أحمد، فقد دونت هذه المعلومات بعدما طبعها الزمان في ذاكرتي ومدوناً سيرته لأجيال من الزمن، ولن يمحوها بإذن الله تعالى إلا الأجل.

تعالى) يشجع على قراءة كتب التصوف بعد إحكام علوم الشريعة الإسلامية، وينصح المريدين بالتدرج بالعبادة، وقد ولع بقراءة الرسالة القشيرية لأبي بكر القشيري لما لها من أهمية في علم التصوف، وقد سمعنا له وهو يقرأ بها علينا في بعض الأوقات، ومنهج الشيخ (رحمه الله تعالى) معلوم عند أكثر العلماء في العالم الإسلامي، ولكنه في الوقت نفسه كان ينكر المظاهر المخالفة للتصوف أشدّ الإنكار، فكان إذا جلس في مجلس ذكر ونصح وأرشد ونهى عن بعض الأفعال، وضرب الحراب، وغيرها، ويقول الكرامة جوهرة ويجب أن تصان، نعم هو يقر هذه الأفعال، إذا كان لها موجب، أما في غير موجب ولا حاجة فلا داعي لها، بل كان ينكرها أشد الإنكار، ويقوم بنفسه مانعاً عنها، لقد استطاع الشيخ أن يهذّب التصوف عما ألصق به أدعياؤه، من مثل معرفة علم الغيب، والعداوة بين المشايخ، والرقى الممزوجة ببعض السحريات، والألفاظ غير العربية، والخرافات، فكان لا يوافق عليها.

وقد سأل في مقابلة أجراها له الشيخ عبد الرزاق عن موقفه من التصوف والسلفية، فقال كلمته المشهورة المهذبة الهادئة (نحن مع الصوفية الصافية والسلفية المعتدلة)، وقد رزقه الله تعالى حسن الاعتقاد من قبل مجيبه، وطلابه، بل وأهل سامراء وغيرهم، فكانت يده مباركة، ونفسه نفس مبارك، والله كان خيمة مظلة لأهل سامراء وغيرها في كل شيء، فكان الناس يعتقدون صلاحه بل وحتى السادة وأهل التكايا يأتونه ويطلبون منه الرقية ورقيته هذه مجزية، بل إذا صح التعبير إنها الترياق المجرب، وقد جربنا رقياه نحن الكبار وكذلك الصغار، ورقياه كلها من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وكان على اطلاع واسع بخواص القرآن أعني به قراءة بعض الآيات على بعض

الأمراض والأمور الأخرى، كان يقرأ حسبة لله تعالى وكان جيبه يحوي على الكثير من الرقى، وكأني به اليوم والناس تدخل عليه تطلب منه البركة، فيمد يده المباركة

فيخرج رقية كذا ورقية كذا، وما أخذ فلساً واحداً فكأنه كان عموداً لهذا الدين، ورجل أمة عاش من أجل قضاء حوائج المسلمين.

نعم إنه كان يشار إليه بالبنان في كل شيء كأن الله تعالى جعل الخير ينبع من أنفاسه، ماذا أن يكتب عنك التأريخ، وأنت الفقيه، والعابد، والزاهد، الناسك، الناصح لله وللمسلمين، وكما أنه يعد الرواية الصادقة لأخبار وكرامات الشيخ صالح النعيمي (رحمه الله تعالى)، والله لقد حدثنا في المدرسة العلمية ونحن صغار عن كرامات الشيخ صالح النعيمي (رحمه الله تعالى) في بعض الأحيان وكان العقل يمار فيها، وكانت هذه الكرامات أكبر الأثر في اتجاهنا اتجاهاً للتصوف الصحيح.

المطلب الثاني: ورعـــه:

اما ورعه فلا يحتاج إلى برهان لأن الورع أخص خصائصه، فكان (رحمه الله تعالى) إذا دعي إلى بيت ويعلم أن رزقه فيه شبهة تعذر عن الدعوى، وكان (رحمه الله تعالى) يتورع عن أجور المحاضرات بل كان يوزعها على بعض المدرسين، وأذكر أنه لما ظهر حصة من بيت أبيه في قضاء الدور، وقال البو كنطز: إن أباك باعنا البيت، واستلم المبالغ، ولم يقيموا بينة، فمع ذلك رفض أن يأخذ حصته وتركها لباقي الورثة.

وكان يتورع في كثير من الأمور منها أن المساعدات التي تأتي من المحسنين للمدرسة ما كان يقبل منها شيئاً، ولا يقبل من أحد إذا اشترى منه حاجة أن يأخذها من غير مقابل بل كان لا يسال عن سعرها ويأخذها ويدفع لصاحبها ما يريد، وما طلب في حياته من أحد شيئاً لنفسه بل كان الناس بحاجة يطلبون ويحصلون على حطام الدنيا، وكان أهم ورعه في الفتيا وكان لا يساوم في الفتوى مهما كلفه الأمر (رحمه الله تعالى) .

المبحث السادس

مجلسه العلمي ومطالعته (١)

أما مجلسه العلمي الحافل الذي كان لا ينقطع صباحاً ولا مساءاً، فهو على دوام في درس أو إفتاء أو حل لمشكلة علمية، وهذا المجلس كان يعقد يومياً، حتى وهو على فراش المرض والناس تتردد عليه ويجيب عن أسئلتهم، والله لم يبخل بعلمه قيد أنملة، أعطى كل وقته وصحته للعلم الذي حمله طيلة حياته المباركة.

المطلب الأول: مجلسه العلمي:

ماذا أتكلم عن مجلسه ووعظه في رمضان خلال أربعين سنة أو أكثر، كان وعظاً يحتوي على علوم شتى من تفسير وفقه وقصة، وكان الجامع الكبير يغص بالمستمعين له، وكان وعظه بمثابة مدرسة قرآنية، لقد تعلّمنا الشيء الكثير من أحكام الشريعة الإسلامية ونحن طلاب نستمع إلى حديثه الشيّق، طلب منه مراراً أن يسجل له الحديث في التلفاز فرفض خشية أن يرى ما لا يحب ان يراه، هذا في رمضان.

أما في غير رمضان فكان يومياً يجلس في المدرسة التي كانت عامرة به، فكان يحدث الناس من صلاة العصر إلى صلاة المغرب، وهو يقرأ في كتاب ويشرحه للجالسين، وفي أثناء الدرس تثار الأسئلة والمناقشات التي يحضرها المدرسون والخطباء، وفي بعض الأحيان العامة تسأل فيجيب، فكان مجلسه هذا إذا صحّ التعبير هو تعليم مستمر للدين من قبل أن تعرف الجامعات والكليات، بما يسمى التعليم المستمر.

---

(١) هذا المبحث من رواية مريده وتلميذه والمدرس تحت إمرته في المدرسة العلمية بسامراء، الدكتور عبد المجيد محمد أحمد، فقد دونت هذه المعلومات بعدما طبعها الزمان في ذاكرتي ومدوناً سيرته لأجيال من الزمن، ولن يمحوها بإذن الله تعالى إلا الأجل.

أما في الصباح أيام العطل فكان هو الآخر تعرض عليه الأسئلة من قبل أساتذة الجامعات والمدرسين، بل أذكر أن رسالة الدكتوراه للشيخ حسيب السامرائي عرضت

عليه قبل أن يناقشها، وصلح منها الشيء الكثير، وكان (رحمه الله تعالى) في مجلسه هذا يتكلم بأنواع العلوم المختلفة فتراه إذا تكلم في النحو فهو النحوي البارع، وكان يحفظ ألفية ابن مالك، وشرحها، وبعض الشروح والحواشي، بل قد يكون تفوقه في النحو والبلاغة والأدب أكثر من تضلعه بالفقه والشريعة.

وقد كنا نسأله ونحن ندرس في المدرسة وحتى وبعد أن انتقلت إلى الجامعة وأسند إلي تدريس البلاغة، كنت أستعين به في حل ما أشكل علي من أمورها، وإذا تكلم بالأدب فهو الأديب الألمعي، والشاعر المبدع.

المطلب الثاني: مطالعته:

كان (رحمه الله تعالى) كثير القراءة، والمطالعة، ومحباً للعلم والعلماء، فقد ترك مكتبة عامرة بأمهات الكتب العلمية، وقد قرأ كل ما في مكتبته من كتب، وقد حدثني قبل وفاته بأسبوعين أو ثلاث أنه انتهى من قراءة كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، وهو يتكون من أربع مجلدات كبار، وقد جمع هذه الكتب من راتبه الزهيد وكان لا يبخل بشراء الكتب، وكنت لا أذكر له كتاب رأيته، أو اشتريته إلا قال لي: اشتريه لي يا عبد المجيد، وكان (رحمه الله تعالى) يحب إشاعة العلم بين الناس فقد كان يشتري بعض الكتب النافعة ويهديها لبعض معارفيه، وأصدقاءه، وقد أهدى لبعض المدرسين من هذه الكتب.

وقد قرأ كتاب خزانة الأدب وهو يتكون من عشر مجلدات، وله متابعات للشعر والشعراء، وهو ذواقة له، وكان ينظم الشعر وله بعض القصائد، وأظنها موجودة في مكتبته أو أوراقه، وكنت كثيراً ما أجالسه، وأختلي به، فكان يذكر لي بعض مطالعته ومذاكرته في الشعر والأدب، ولا سيما معرفته بما جرى من المعارك الأدبية بين طه

حسين والرافعي، فكان بعبارة موجزة إذا تكلم بالأدب وفنونه فهو الأديب الذي لا يشق له غبار، وقد ذكر لي أنه كان يقرأ كل أعداد الرسالة للزيات.

وكم من جلسة جمعتني به في ديوان السيد أكرم الجادر، حيث يذكر ويتذاكر مع السيد أكرم بعض المسائل الأدبية، والمواعظ، ومن الأمانة العلمية التي تفرض عليّ

أن أقولها يوم كنت مدرساً معه (وهو الذي طلب تعييني في المدرسة المذكورة)، إنما كنت طالباً مستفيداً من علمه، وكنت أراها فرصة العمر لأنهل من علمه وصلاحه، والله ما كنت أقرر شيئاً حتى أخبره به فإن كان صواباً فعلته، وإلا تركته، وكان هو (رحمه الله تعالى) يذكر لي هذا الصنيع، وفي كل فرصة أو مناسبة أثير بعض الأسئلة، وأنا كنت يومها مشغوفاً بالعلم، وكنت أقرأها في كتب أحسب انه كان لا يعرفها، فإذا هو حافظ باللفظ، عارف بمواقعها، ما كنت أفعل ذلك إلا لأعرف مدى فهمي لها، ولم أكن مختبراً في ذلك لشيخي (رحمه الله تعالى)، وكان يحثني على المطالعة.

وقد حدثني عن نفسه كيف أنه يقضي الليل بالمطالعة، وكان لا ينام إلا قليلاً، كل ذلك شجعني وزرع فيّ حب العلم، وقد أثر فيّ كثيراً إلى درجة أن كل ما وصلت إليه من علم وشهادات عليا فهو من إفضاله، وإحسانه، وكان يشجعني على العلم، وكان (رحمه الله تعالى) يودني كثيراً، ويثني عليّ، وآخر مرة زرته في بيته فقال لي بحضور ابنه الأكبر الأستاذ عبد الحليم: والله يا عبد المجيد إنك عندي أفضل من ٩٠% من ملالي سامراء، وعندها قلت له: هذا من حسن ظنك بي يا شيخ، وقد درّس الأدب في أيام شبابه في بغداد في مدرسة التفيض الأهلية(رحمه الله تعالى).

المبحث السابع

جـهـــوده ومـــواقـــفـــه(١)

قضى الشيخ الجليل (رحمه الله تعالى) أكثر من ستين سنة حافلة بالجهاد والعطاء والدعوة إلى الله تعالى، وقد شهدت له بذلك مواقف لا تحصى، منها:

أولا: غيرته على الإسلام:ـــــ

كان (رحمه الله تعالى) غيوراً على دينه إذا ما انتهكت حدوده، وكان يكتب المقالات في التربية الإسلامية رداً على إفتاء غير صحيح، أو تصحيح لفكرة، أو رأي يخالف الدين، من ذلك ردّه على الدكتور رشيد العبيدي عميد كلية الشريعة سابقاً لما سأل في مسألة الرضاع فأفتى فيها خطأ، وخطبه أكبر شاهد على غيرته، ففي أحد السنوات (في حدود سنة ١٩٦٠م) لما جاء صاحب مجلة العربي الكويتية وصوّر بعض الطالبات في أحد المعاهد هاجمه الشيخ بخطبة الجمعة.

ثانياً: اهتمامه بشؤون المسلمين:ـــــ

اهتمامه بشؤون المسلمين فهي كثيرة جداً، منها أنه في عام ١٩٦٧م قام بجمع التبرعات للفلسطينيين من المال والحبوب، وكان يذهب بنفسه إلى القرى والأرياف لجمع الحبوب، وقد أصدر فتوى في ذلك الوقت بجواز دفع الزكاة للمجاهدين الفلسطينيين، وذهب بنفسه إلى الأردن وسلّمها لأصحاب المخيمات، وكان دائماً يذكر الفلسطينيين، ويندد باليهود، وكانت خطبته تتناول أمور المسلمين في جميع نواحيها.

---

(١) هذا المبحث من رواية مريده وتلميذه والمدرس تحت إمرته في المدرسة العلمية بسامراء، الدكتور عبد المجيد محمد أحمد، فقد دونت هذه المعلومات بعدما طبعها الزمان في ذاكرتي ومدوناً سيرته لأجيال من الزمن، ولن يمحوها بإذن الله تعالى إلا الأجل.

ثالثاً: قضاؤه على مظاهر الفساد:ـــ

لقد كان من الرجال الذين يحفظون لهذا الدين حرمته وحدوده، فلم يكن ذلك الشيخ المنزوي، أو القامع في مدرسته، أو بيته، بل كان على دراية تامة لما يحدث في مدينته من مخالفات شرعية فطيلة حياته في سامراء ما تجرأ أحد أن يفتح خانة خمر، أو أن يعرض فلماً سينمائياً، أو أن تقام حفلة مخافةً منه بل كان إذا وقع مثل هذا أنكره، وكان الذي يفكر في مثل هذا الفعل يضع في حسبانه أن الشيخ موجود، ويتعرض إلى انتقاده، فكان حتى الفسقة تهابه، وتجله، فشخصية الشيخ القوية والمؤثرة سبب في منع الكثير من المحرمات في سامراء، ولا تزال سامراء ببركة جهوده بعيدة عن الموبقات والمحرمات.

رابعاً: دوره في تأسيس الجمعيات الخيرية والمدارس الدينية والمساجد:ـــ

إن دور الشيخ (رحمه الله تعالى) في إنشاء الجمعيات والمساجد واضح وظاهر فهو لم يألوا جهداً في إنشاءها، فقد كان (رحمه الله تعالى) رئيساً لرابطة علماء صلاح الدين، وكذلك رئيساً للجمعية الخيرية، وأما المدارس الدينية فقد كان له الدور الكبير في إرجاعها إلى الأوقاف عندما ألغيت في السبعينيات، فظل يطالب ويكافح في كل مناسبة من إرجاعها، وفعلاً رجعت وخرجت دفعة واحدة عام ١٩٩٨م، وهي لا تزال موجودة، وتعنى بالرعاية من قبل الدولة.

خامساً: فتاويه:ـــ

كان (رحمه الله تعالى) يفتي على المذاهب الأربعة، وكان يلتزم المذهب الشافعي، في الأغلب إلا أنه في مسألة الرضاع يفتي على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وكان من الورعين والمتشددين في الطلاق، ولا يخالف المذاهب الأربعة، ولم يكن متعصباً لرأي بل كان يرى أن أي إمام معتبر من أئمة الدين يفتي بمسألة يجوز

الأخذ بها، إلا أنه كان يأخذ بالأحوط، ولم يكن من المتسرعين بالأفتاء، ويخاف الله تعالى كثيراً في الفتيا، ويوم أن حصل النزول في السوق سنة ١٩٩٦م كان يفتي بالفتوى التي خالف بها أكثر العلماء الموجودين، وأثبت الواقع صدق فتواه

لأن السوق قد ارتفع فيما بعد (رحمه الله تعالى).

سادساً: زياراته ورحلاته في حل المشاكل الإسلامية:ـــ

لقد زار الكثير من البلدان العربية، والإسلامية لشرح وجهة نظر العراق في العدوان الإيراني، فزار مصر، والجزائر، وشارك في الكثير من المؤتمرات الإسلامية، وكان يؤخذ برأيه في أمور كثيرة تتصل بحياة المسلمين وأوضاعهم، وترأس اللجنة العلمية بالحج عدة مرات، وكان يقوم بتوجيه الحجاج المسلمين مرشداً لهم، ومعلماً، بل كان أكثر الحجاج يترددون عليه للسؤال عن مسائل الحج.

سابعاً: محاربته للبدع والخرافات :ـــ

كان (رحمه الله تعالى) شديد الغيرة على الدين، فما من بدعة ظهرت في المجتمع إلا وعالجها في يوم الجمعة، وبيّن زيفها، فمثلاً عندما وزعت أوراق مفادها أن رجلاً رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لي: على كل مسلم أن يقرأ هذه الورقة، وإلا فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير راضٍ عنكم، أو أن القيامة موعدها قريب، وأمثالها فكان يرد عليها.

وفي بعض الأحيان يسمع عن رجل أنه قال: إني رأيت الله في المنام، وكنت يومها حاضراً فرد عليه رداً عنيفاً، وما من منكر يحدث في البلد إلا عالجه وردّ عليه، وبيّن وجه الحق وقد عالج المنكرات التي تنقل بالمآتم، وبيّن أنه لا توجد هذه البدع أمثال الأربعينية، ووضع السكاير في الفواتح، وكان يوجه أصحاب العزاء الوجه الصحيحة، وكان يطيب خواطرهم، وكان شديد الملاحظة في المجالس التي يحضرها، ويستغلها للتذكير بأمور الدين (رحمه الله تعالى).

المبحث الثامن

مكانته العلمية وأهم العلوم التي برز فيها

برز (رحمه الله تعالى) في أكثر من علم من العلوم العقلية والنقلية، ولا سيما علم النحو والفقه والمنطق، وعلم البحث والمناظرة، ولكنه كان له اهتمام بعلم التفسير والفقه، وقد نشر في أعداد كثيرة من مجلة التربية الإسلامية بحوثاً في تفسير بعض الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلشَّيۡطَانِ ٱلرَّجِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾[١]

وقد اعتاد في تفسيره للآيات أن يقدم مقدمة قبل البدء بتفسيرها بربط الآيات بالواقع المعاصر، حيث قال: (قد ابتلي المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها بالمستعمرين الأجانب، بل بالمستعبدين من الغرب والشرق، وكادوا يفقدون كل مقوماتهم الروحية والمادية)[٢]، وأخذوا يقلدونهم، حذو النعل بالنعل، ولكن فيما يضرهم، وإن من أفظع الخصال التي قلّدها المؤمنون فيها غيرهم خصلة السفور، وما تولد منها من خلاعة ودعارة، ويعني في فقد هذه الخصلة إلى أن يقول: ولقد أصبحت هذه الفتنة العارمة، الجارفة من اشد مصائبنا، وأعقد مشاكلنا الاجتماعية[٣].

ويقول: وهنا أحب أن ألفت نظر القارئ إلى أني سأوجز الكلام على تفسير هذه الآية الكريمة، وبعد ذلك سأتخذ منها وليجة للدخول في الكلام على فتنة السفور[٤] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٦.

(٢) بحث منشور في مجلة التربية الإسلامية بعنوان تفسير ،العدد السابع، السنة الثالثة، سنة ١٩٦١م، ص ١٩٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

وطريقته في التفسير بعد أن يقدم للآيات مقدمة يبدأ ببيان المعاني اللغوية للألفاظ، ثم يبدأ بذكر ما قاله أهل التفسير، ثم يبدأ بذكر بعض الفوائد مثل قوله : (وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو العورات، وضعت الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلقه من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى، ومما يجدد الإلتفات إليه أن هذه الآية وقعت بين تحذيرين من قبل المولى سبحانه، كل منها يشير إلى أهمية اللباس، وستر العورة، وإنها من النعم الكبرى، كما يشير إلى فظاعة العورة).

أما التحذير الأول: فقصة أدم المذكورة بقوله تعالى: ﴿ النُّورِ الْفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ الْقَصَصِ ﴾[١] ، والتحذير الثاني عقب هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ﴿ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ الْمَائِدَةِ الْأَنْعَامِ الْأَعْرَافِ الْأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ ﴾[٢]، فكأن الآية الكريمة بما سبقها وما لحقها قد تكررت ثلاث مرات، وفي ذلك ذكرى للذاكرين[٣].

وكذلك تكلم على تفسير قوله تعالى:﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ﴾[٤] وأما بعد فقد امتدح الله تعالى المجاهدين في سبيله، وأثنى عليهم الثناء العاطر، وأعلى مكانتهم، ثم يبدأ ببيان الكلمات الواردة ويفسرها كل كلمة على حدة، ويوضح معنى الجهاد، ويستعين بالسنة في تفسير الآيات، ويهتم ببيان

الألفاظ المتناظرة، مثل لفظ الهداية ويذكر أنواعها.

---

(١)سورة الأعراف ، من الآية ١٩.

(٢)سورة الأعراف ، من الآية ٢٧.

(٣)بحث منشور في مجلة التربية الإسلامية بعنوان تفسير،العدد السابع، السنة الثالثة، سنة ١٩٦١م، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٤)سورة العنكبوت ، الآية ٦٩.

وكما بيّن معاني (مع) الواردة في الآية فيقول: وفي هذه الجملة الكريمة إقامة الظاهر مقام المضمر أعني ﴿ ه ۀ ہ ہ ھ ﴾[١] بدل وان الله لمعهم، وذلك بزيادة تشريف المجاهدين بوصفهم بالإحسان، ومعية الله تعالى مع عباده على قسمين، فتارةً تكون للتكريم، وتارةً تكون للتهديد، والمعية في هذه الآية من القسم الأول، ومثلها قوله تعالى:﴿ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ﴾[٢]، أي بالعلم المحيط الشامل لكل موجود[٣]. وكما تكلم على تفسير قوله تعالى: ﴿ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ﴾[٤] .

فبعد أن يبدأ بتفسير هذه الآية وذكر الوجوه الواردة فيها، نجده يذكر بعض الفوائد، منها يستفاد من مجموع الآيات استثنى من وجوب العدم ذوي الأعذار المشروعة رحمةً بهم لفقدهم بعض شروط الوجوب، أو اللغة، والمستثنون هنا قسمان: قسم ذوو أعذار مؤقتة يؤل زوالها، كالسفر والمرض، والقسم الآخر ذو أعذار مستديمة، لا يرجى زوالها، كالكبر، والهزال، والعنت، وهكذا، بمعنى من حيث بعض الآيات من الناحية الفقهية [٥].

وكما نشر بحوثاً متعلقة بالمسائل الفقهية، مثل كلامه حول اللباس الشرعي، ومن شروطه وأنواعه[٦]، فتكلم في العدد العاشر السنة الثالثة على النقطة الرابعة الخاصة بلباس أحد الحينين عرفاً غالباً، مع مراعاة الزمان والمكان، والنقطة الخامسة اللباس المختص بالكفار، وبقصد التشبه بهم، والنقطة السادسة تكلم عن إسبال الثياب

---

(١)سورة العنكبوت ، الآية ٦٩.

(٢)سورة الحديد ، من الآية ٤ .

(٣) بحث منشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ۀ ۀ ہ ہ ھ ﴾سورة العنكبوت، الآية ٦٩، مجلة التربية، العدد التاسع، السنة الأولى، سنة ١٩٥٩م، ص ٣ ـ ٩ .

(٤)سورة البقرة ، من الآية ١٨٤.

(٥)ينظر: مجلة التربية الإسلامية، العدد الثاني، السنة الرابعة، ١٩٦٢م، ص ٦٧ ــ ٦٩ .

(٦)ينظر: مجلة التربية الإسلامية، العدد الثالث، السنة الثالثة، ١٩٦١م.

وإطالتها إلى ما تحت الكعبين بالنسبة إلى الرجل، خاصة إذا قصد بذلك الكبر والخيلاء فهو حرام، وإذا خلا عن التكبر وقصد التشبه بالكفار فهو مكروه وليس بحرام.

ويقول إنما تحرم إطالة الثياب وإسبالها، إذا كان القصد بذلك الكبر والخيلاء واستحقار الناس، وأما إذا كانت الإطالة سجية الملابس فهي مباحة إن كانت إلى الكعبين، ومكروهة إن كانت أسفل منها لما رواه الخمسة عن إبن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله : إن أحد شقي إزاري مسترخي، ألا أن القاصد ذلك منه، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لست ممن يعنيه خيلاء)[١]، والذي ذكره الشيخ هو الراجح في هذه المسألة التي يحصل الخلاف حولها في هذا الوقت.

وتكلم عن النقطة السابعة وهو اللباس الذي لا يستر العورة مطلقاً، أي سواء كان قصيراً، بحيث تبقى العورة مكشوفة، أم كان مفتحة بعض جوانبه وجيوبه، وترى العورة منه أم كان رقيقاً أو مهلهلاً يشف تحته، أم كان مخرقاً بحيث لا يسترها، كما تقدم في النوع الأول.

وهذا النوع أعني الذي لا يستر العورة بأي صورة من الصور محرم بالإتفاق على قاعدة (كل ما وجب ستره حرم كشفه، والنظر إليه إلا ما خص منه)، وبعد هذا أجل ما ورد في الشريعة الإسلامية من المحرمات بالنسبة على اللباس إن أقل كلها [٢] .

ومن المعلوم أن الشيخ لم يؤلف كتاباً معيناً، لكنه كان منشوراً في التربية الإسلامية بعض البحوث، ولقد عثرت على بعضها، وكما نشر فيها رداً على فتوى الدكتور رشيد العبيدي عميد كلية الشريعة في مسألة الرضاع، وكما كان له تقدير

---

(١) رواه الخمسة.

(٢) مجلة الشريعة الإسلامية، العدد العاشر، السنة الثالثة، اللباس الشرعي، ١٩٦٢م، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨ ـ.

لرسالة الإمام الغزالي أيها الولد، وكما كان له في رمضان كل سنة وعظاً يستمر أكثر من ساعة في كل يوم، وقد جمع السيد عبد الحليم هذه الدروس ونقلها من شريط (كاسيت) إلى سجل وطبعها تحت عنوان (التبيان في صفات عباد الرحمن) [١].

المبحث التاسع

وفاته ونماذج مما قيل فيه من قصائد

المطلب الأول: وفاته:ـــــــ

(١) ينظر: التبيان في صفات عباد الرحمن، جمع السيد عبد الحليم أيوب الخطيب.

إن وفاة الشيخ أيوب الخطيب (رحمه الله تعالى) تشكل أبرز حدث في تأريخ مكانته العلمية والفكرية، فما أن سمع الناس بنبأ وفاته، إلا وتسارعوا إلى بيته، وكان تجمعهم تجمع عفوياً، وجاء الناس من كل حدب وصوب، وأخذ طلاب العلم والمحبون يدخلون عليه وهو مسجى ببرده، ليلقوا عليه النظرة الأخيرة نظرة الوداع، ويقبلونه من لحيته المباركة، لقد سجلت سامراء يوم وفاته سفراً يكاد لا يوجد له نظير في عالم الترابط، والتقدير لحملة العلم.

وأخذ الناس يتوافدون من جميع القرى، والأرياف، والنواحي، والأقضية، والمحافظات الأخرى، لمجرد سماعهم بوفاة الشيخ، والشيء الملفت للنظر أن إذاعة بغداد ووسائل الإعلام العراقية بكل فروعها لم تذكر نبأ وفاته، إلا أن أكثر الإذاعات العربية ذكرت نبأ وفاته.

ولنلقي نظرة على تلك الأحداث ومظاهر ذلك التشييع الذي لم يحصل لعالم من العلماء، تشييع مهيب، خرجت سامراء برجالها، ونساءها، وأطفالها، وصالحها وطالحها، لا ترى المشيعين إلا وهم يتباكون على فقده، سائرون على الأقدام، ولقد ضاقت المنطقة القريبة من داره بالناس، ولما لا وقد خرجت سامراء عن بكرة أبيها مشيعةً فقيدها إلى مثواه الأخير في الجامع الكبير، ولم يتخلف أحد من أهل سامراء عن تشييعه، والذي أعتقده أنه لم تشيع جنازة مثلها، سوى جنازة الإمام الرباني أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى)، إن القلم ليعجز، وإن العقل ليقف حائراً، واللسان عاجزاً عن وصف ذلك المشهد الذي يوحي بإجماع الناس على صلاح هذا الرجل.

الكل يبكي، والكل يهلل ويكبر، إنه العلم الساري، والبناء الذي نوّر سامراء بطلعته، لقد فقدت سامراء جيلاً شامخاً من العلم، لقد نال محبة كل من جالسه، ونظر إليه، حاز احترام كل الناس على اختلاف مشاربهم، واختلاف نزعاتهم، إنه من بقية السلف الصالح، ولقد وثقت سامراء هذا التشييع، وحفظت صوره الكاميرات الشخصية، والفيديوية.

لقد تخلق بأخلاق القرآن الكريم، فنال هذا الاحترام، وهذه المكانة التي قلّ أن يصل إليها احد من أقرانه، ولقد رثاه عدد كبير من الشعراء كالشاعر محمود محمد عرب (رحمه الله تعالى) وغيره.

المطلب الثاني:نماذج مما قيل فيه من قصائد:ـــــ

أولاً: قصيدة دمعة وداع للشاعر محمود محمد عرب رحمه الله تعالى:

قد غيض صبري والمدامع تهمع ونياط قلبي بالجوى تتقطع

ولقد رزئت بنعيه لما سرى ولقد ذهلت كأنني لا أسمع

ولقد وجمت وللوجوم سماته وجل وأعياء وصمت يفزع

ولقد دهاني الكرب يوم رحيله ولقد خطبت وأي خطب أفجع

يا ويح قلبي يوم طارقه النوى عاف الكرى جفني وجسمي موجع[١]

ثانياً: قصيدة أنت الدار للأستاذ الشاعر محفوظ نوح:

يا راحل بشغاف القلب قد ذهبا في يوم فقدك نور العلم قد حجبا

بعدت عنا فسامراء موحشة قد فارقت روحها حين القضا وجبا

مصباحها أنت وضاء تتيه به فصرت بين الورى أماً لها وأبا

إن كان معتصم أرسى معالمها علمتها أنت حباً جاوز الرتبا

أيقضتها من سبات دام أزمنة حتى طلعت بها تستنطق الحقبا[١]

---

(١) من قصيدة الشاعر المرحوم الأستاذ محمود محمد عرب ، البيت في مناسبة تأبين الشيخ في ١٨ / ٥/ ١٩٩٩م.

ثالثاً: قصيدة بالمناسبة للشاعر حسين محمد عرب :

فقدنا مورداً حلواً فراتاً جزيلاً للغوب الصادئينا

فقدنا منهلاً عذباً معيناً نهيراً كان يروي الضامئينا

بكينا مرجع الإفتاء فينا خسرنا عالماً ثبتاً رصينا

إذا عمّ الظلام تجده بدراً منيراً كان يهدي التائهينا

أبا عبد الحليم لقد فجعنا بموتك بل بفقدك قد رزينا

رأيت الناس في التشييع ثكلى عليك الدمع تذرفه سخينا

رأيت الناس حولك حين قاموا بتشييع الجنازة ذاهلينا

لقد شيعت تشييعاً مهيباً يجف به بكاء الثاكلينا

وأملاك السماء حفتك حقاً وأولهم لقد كان الأمينا

وأيم الله كان الشيخ ثبتاً فلا يخشى ملام الائمينا[٢]

المصادر والمراجع

١. تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ .

٢. تاريخ علماء سامراء، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م.

---

(١) من قصيدة طويلة ألقاها الأستاذ محفوظ فرج، ألقيت في الحفل التأبيني للشيخ أيوب الخطيب في ١٨ / ٥/ ١٩٩٩م.

(٢) من قصيدة للشيخ حسين محمد عرب، ألقيت في نفس المناسبة.

٣. التبيان في صفات عباد الرحمن،جمع السيد عبد الحليم الشيخ أيوب الخطيب.

٤. العمارة العباسية في سامراء في عهد المعتصم والمتوكل، الدكتور طاهر مظفر العميد، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.

٥. مجلة التربية الإسلامية بعنوان تفسير،العدد السابع، السنة الثالثة، سنة ١٩٦١م، السنة الأولى سنة ١٩٥٩م.

٦. مجلة الشريعة الإسلامية، العدد العاشر، السنة الثالثة، اللباس الشرعي، ١٩٦٢م.

٧. مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي(٣٤٦هـ) ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٨. مجلة سامراء، العدد الحادي عشر، كانون الأول، سنة ٢٠٠٥م.

٩. مدينة الدور (التأريخ والتراث)، تأليف عساف صالح أحمد، الطبعة الأولى، سنة ١٤٣٢هـ .

١٠. مقالة الأستاذ الشاعر وليد الأعظمي، ألقاها في يوم وفاته.

١١. مقالة الشيخ مخلص حماد الراوي، بعثها إلى أولاد الشيخ المرحوم.